

CRITICAL ASPECTS IN "THE EGYPTIAN MESSAGE"
BY ABU AL-SALT UMAYYAH BIN ABDUL AZIZ AL-DANI (D. 529 AH)

Prof.Dr. Mohammed Abd- AlHussein ALKATEEB¹

University of Karbala, Iraq

Prof.Dr. Mohammed Hussein ABDALLAH²


University of Karbala, Iraq

Abstract

The Egyptian message to its author Abu al-Salt Umayyah bin Abdul Aziz al-Dani formed an important document of literature in the Fatimid era, represented the personality of its author in style, presentation, analysis, and criticism, since he left Abu al-Salt Andalusia, and went towards Egypt, the man aspired to meet a good place in its land, and enjoys a lofty status when its ruler Al-Afdal bin Badr Al-Jamali, the executive minister when the Fatimid Caliph Al-Musta'li Billah, and after him the commanding of the provisions of God, But the winds dragged what the ships did not desire, as the conditions of this man worsened, and his life fluctuated, so he was thrown into prison, and imprisoned between its walls for a period of time, which led him - after his departure - to the delegation of Prince Abu Al-Taher Yahya bin Badis Al-Senhaji, who dedicated this message to him to be a witness to a place in which he lived harsh days, and diagnosed the sum of what he saw and witnessed of scenes and events during his stay in Egypt, a small encyclopedia that collected science Besides literature, her classifier presented the facts in an interesting literary style, in which he combined the beauty of the phrase, the sweetness of the word, the splendor of the style, as well as his mastery of the tools of rhetoric, and the workmanship of writing

In this research, we studied the manifestations of social criticism of the components of Egyptian society during the Fatimid era, then the manifestations of literary criticism that revealed the personality of Abu al-Salt literary and historical encyclopedia according to the axes, most notably the research in its places.

Key words: The Egyptian Message, Abu Al-Salt Umayyah Bin Abdul Aziz Al-Dani, The Fatimid Era.

 <http://dx.doi.org/10.47832/2757-5403.24.8>

¹  Mohammed.alkateeb@uokerbala.edu.iq

²  mohammed.hussien@uokerbala.edu.iq, <https://orcid.org/0000-0002-3706-4126>

المظاهر النقدية في " الرسالة المصرية "
لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني (ت529هـ)

أ.د. محمد عبد الحسين محمد الخطيب

جامعة كربلاء، العراق

أ.د. محمد حسين عبد الله المهداوي

جامعة كربلاء، العراق

الملخص

شكّلت الرسالة المصرية مؤلفها أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني وثيقة مهمة من وثائق الأدب في العصر الفاطمي، مثلت شخصية مؤلفها في الأسلوب، والعرض، والتحليل، والنقد، فمنذ أن غادر أبو الصلت الأندلس، وتوجه صوب مصر طمح الرجل في أن يلقى مقاماً طيباً في أرضها، ويحظى بمنزلة سامقة عند حاكمها الأفضل بن بدر الجمالي الوزير المنقذ عند الخليفة الفاطمي المستعلي بالله، ومن بعده الأمر بأحكام الله، ولكنّ الرياح جرت بما لا تشتهي السفن؛ إذ ساءت أحوال هذا الرجل، وتقلّبت حياته، فزجّ به في السجن، وحبس بين جدرانها مدة من الزمن قادته - بعد خروجه - إلى الوفاة على الأمير أبي الطاهر يحيى بن باديس الصنهاجي؛ الذي أهدى إليه هذه الرسالة لتكون شاهداً على مكانٍ عاش في ظلاله أياماً قاسية، ومشخصاً فيها مجموع ما رآه وعائنه من مشاهد وأحداث في أثناء إقامته بمصر، وهي موسوعة صغيرة جمعت العلم إلى جانب الأدب، وقدم فيها مصنفها الحقائق بأسلوب أدبي شيق، جمع فيه بين جمال العبارة، وحلاوة اللفظة، وروعة الأسلوب، فضلاً عن تمكّنه من أدوات البلاغة، وصنعة الكتابة...

ويزخر أدب أبي الصلت الداني في (الرسالة المصرية) بإضاءات نقدية متعددة ومتنوعة، سواءً في الموضوعات العامة أم في المقاصد الأدبية، وهي - في مجملها - تتأرجح بين الآراء الانطباعية التي تخفي وراءها أسباباً غير مذكورة، ولكنها تتصل ظاهرياً بذوق الأديب، وظيفته، وثقافته، من جانب، والآراء الموضوعية التي تقدّم للمتلقّي أدلّة عقليةً ونقليةً من علومٍ شتى، مع الاجتهاد في تحليلها وتقويمها للموضوع المبتوث في الرسالة.

ولأنّ (الرسالة المصرية) كتبت بعد رحلة غير موفقة قام بها أبو الصلت الداني إلى مصر؛ طلباً للمال، والجاه، والعلم، ولأنّ حاكم المهديّة بتونس (أبا طاهر يحيى بن تميم بن المعز بن باديس (ت509 هـ)) قد أعاد على أبي الصلت الداني بعد عودته من مصر مما لم يظفر به هناك، ورفع قدره بعد ذلّة ومهانة أصيب بها، فلنا أن نتكهن أنّ هذه الرسالة قد اشتملت على فقرات متعددة في ذمّ خواص مصر، وعوامها، من دون أن نغفل وجود محاسن عند ثلّة من أعلامها، فضلاً عن طبيعة أرضها ومائها، وحين ندخل إلى متن الرسالة يصبح ذلك التكهن ماثلاً في ما نقرؤه من ملاحظ (سلبية وإيجابية).

درسنا في هذا البحث مظاهر النقد الاجتماعي لمكونات من المجتمع المصري إبان العصر الفاطمي، ثم مظاهر النقد الأدبي التي أفصحت عن شخصية أبي الصلت الأدبية والتاريخية الموسوعية على وفق محاور أبرزها البحث في مواضعها.

الكلمات المفتاحية: الرسالة المصرية، أبو الصلت الداني، النقد، العصر الفاطمي.

المقصد الأول:

الرسالة المصرية؛ تعريف عام

الرسالة المصرية من المؤلفات القيّمة؛ التي يرجع تأليفها إلى عصر الدولة الفاطميّة، وهي على صغر حجمها وثيقة مهمة تؤرّخ لجوانب من حياة مصر في القرن الخامس للهجرة، في كثيرٍ من مناحي المعرفة، " يرجع إليها البلداني، والمؤرّخ، وباحث الآثار، والاجتماعي، والحكيم، والطبيب، والمنجم، والأديب " (الداني، 1991، صفحة 14)، وقد طبعت هذه الرسالة مع مجموعة من الرسائل النادرة ضمن كتاب (نوادير المخطوطات) في جزئه الأول، وقال فيها محققها الدكتور عبد السلام هارون في صدر تحقيقه: " هذه الرسالة الصغيرة الحجم، العظيمة القدر، كانت متعارفة، متداولة بين كبار العلماء والمؤرخين، ثمّ أضحت نادرة، مجهولة، إلى أن تمكّن المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا - طيّب الله ثراه - من اقتنائها في مكتبته الخاصة، وهي برقم 601 أدب، وعلى هذه النسخة الوحيدة في العالم - كما يتضح من مراجعة فهرس بروكلمان - اعتمد في نشر هذه الرسالة الفريدة... " (الداني، 1991، صفحة 14)، ومن هنا تتضح قيمة هذه الرسالة، في فرادتها، وندرتها، فضلاً عما تشتمل عليه من مادة معرفيّة، يحتاج إليها طالب العلم، ويرنو نحوها العالم المتمكن.

ومؤلف هذه الرسالة هو أبو الصلت؛ أميّة، بن عبد العزيز، بن أبي الصلت، الأندلسي (الأصفهاني، 1986، صفحة 189/1) (الحموي، 1993، صفحة 740/2)، من أهل دانية، وهي " مدينة بشرق الأندلس على البحر عامرة حسنة لها ريبض عامر وعليها سور حصين، وسورها من ناحية المشرق في داخل البحر قد بني بهندسة وحكمة " (الحميري، 1980، الصفحات 132-131/1)، وهذه المدينة " من أعمال بلنسية،... ولها رساتيق واسعة كثيرة التين والعنب واللوز " (الحموي، معجم البلدان، 1995، صفحة 434/4)، وذكر ابن الأثير أنّه من أهل إشبيلية (البلنسي، 1986، صفحة 9/1)، ويبدو أنّه سافر إليها في مرحلة من مراحل عمره الأولى حتّى نسب إليها، وقد غادرها بعد ذلك وهو ابن عشرين عاماً (التلمساني، 1997، صفحة 105/2)، وقد اجتمعت في شخصه علائم العلماء، وصفات الأدباء، وتغلّبت عليه الثقافة الموسوعيّة؛ التي تنفذ إلى كل علم بسهم، فقد جمع العلم، والحكمة، والطب، والأدب، والتاريخ، وشتى فنون المعرفة، وإن غلبت عليه مهنة الطب، حتّى عدّه ابن أبي أصيبعة (ت668هـ) في عداد أطباء الأندلس، فقال: " قد بلغ في صناعة الطب مبلغاً لم يصل إليه غيره من الأطباء (اصيبعة، د.ت، صفحة 501).

وقد اتفق من ترجم له على أن مولده كان في سنة 460 هـ، ولم تذكر المصادر شيئاً عن نشأته، وتربيته، وتعليمه في بلاد الأندلس قبل أن يرحل عنها إلى مصر، ومن ثمّ إلى المهديّة بتونس حيث اتصّاله بملوك الدولة الصنهاجية، وذكرت بعض المصادر أنّه تلقى تعليمه الأول على يد جماعة من علماء عصره، منهم القاضي أبو الوليد الوقشي؛ الذي قال عنه ابن بشكوال (ت578هـ): " أحد رجال الكمال في وقته باحتوائه على فنون المعارف، وجمعه لكليات العلوم، هو من أعلم الناس بال نحو، واللغة، ومعاني الأشعار، وعلم الفروض، وصناعة البلاغة، وهو بليغ مجيد، شاعرٌ، متقدم حافظ للسنن، وأسماء نقلة الأخبار، بصيراً بأصول الاعتقادات وأصول الفقه، واقف على كثير من فتاوى فقهاء الأمصار، نافذ في علم الشروط والفرائض، متحقق بعلم الحساب والهندسة، مشرف على جميع آراء الحكماء، حسن النقد للمذاهب، ثاقب الذهن في تمييز الصواب، ويجمع إلى ذلك آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة، ولين الكنف، وصدق اللهجة " (بشكوال، 1955، الصفحات 618-617/2)، ومن ثمّ فلا نستغرب أن يكون التلميذ على سمت أستاذه؛ علماً، وخلقاً، وأدباً.

يزخر أدب أبي الصلت الداني في (الرسالة المصرية) بإضاءات نقدية متعددة ومتنوعة، سواءً في الموضوعات العامة أم في المقاصد الأدبية، وهي - في مجملها - تتأرجح بين الآراء الانطباعية التي تخفي وراءها أسباباً غير مذكورة، ولكنها تتصل ظاهرياً بذوق الأديب، وظرفه، وثقافته، من جانب، والآراء الموضوعية التي تقدّم للمتلقي أدلةً عقليةً ونقليةً من علوم شتى، مع الاجتهاد في تحليلها وتقويمها للموضوع المبتوث في الرسالة.

المقصد الثاني: الاتجاه النقدي في الرسالة:

لأنّ (الرسالة المصرية) كُتبت بعد رحلة غير موفقة قام بها أبو الصلت الداني إلى مصر؛ طلباً للمال، والجاه، والعلم، ولأنّ حاكم المهديّة بتونس (أبا طاهر يحيى بن تميم بن المعز بن باديس (ت509 هـ)) قد أعقد على أبي الصلت الداني بعد عودته من مصر مما لم يظفر به هناك، ورفع قدره بعد ذلّةٍ ومهانةٍ أصيب بها، فلنا أن نتكهّن أنّ هذه الرسالة قد اشتملت على فقرات متعددة في ذمّ خواص مصر، وعوامها، من دون أن نغفل وجود محاسن عند ثلّةٍ من أعلامها، فضلاً عن طبيعة أرضها ومائها، وحين ندخل إلى متن الرسالة يصبح ذلك التكهّن ماثلاً في ما نقرؤه من ملاحظ (سلبية وإيجابية). فأول الأمر أنّ أبا الصلت الداني قرّر السفر إلى بلادٍ يجد فيه النعيم، والغنى، والصيت الحسن، وطيب المقام، والاستزادة من المعرفة، فوقع اختيار ذهنه على مصر فقال في ذلك: " فجعلت أستقري البلاد لأتيمم أوفقها للمقام، وأعونها على مقارعة الأيام، فكانت مصر مما وقع عليها اختياري، وصدقت حسن ظني قبل اختياري " (الداني، 1991، صفحة 18)، وبالفعل، فحين دخل مصر وصف جمال طبيعتها، فقال: " وحيث التفت فروضةً وغدير، وخورنق وسدير، وظل ظليل، ونسيم عليل " (الداني، 1991، صفحة 19)، لكنّه فوجئ لما استوطن فيها بأخلاق أهل مصر، قائلاً: " وأما أخلاقهم فالغالب عليهم اتباع الشهوات، والانهماك في اللذات، والاشتغال بالترهات، والتصديق بالمحالات، وضعف المرائر والعزمات، إلى غير ذلك مما حكاه أبو الحسين علي بن رضوان في ذلك واقتصه، وأورده من الأمور الطبيعية وموجبه، وكفى به حكماً منصفاً، وشاهداً عدلاً... " (الداني، 1991، صفحة 30)، ثمّ أضاف قائلاً في مساوئ أخلاقهم: "... وجلهم أهل رعاية ولهم خبرة بالكيد والمكر، وفيهم بالفطرة قوة عليه وتلطف فيه وهداية إليه، لما في أخلاقهم من الملق والسياسة التي أربوا فيها على كل من تقدم وتأخر، وخصوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم، حتى صار أمرهم في ذلك مشهوراً، والمثل بهم مضروباً... " (الداني، 1991، الصفحات 36-37)، ويغلب على أقوال أبي الصلت الداني المتقدمة، وغيرها ضمن رسالته المذكورة في أهل مصر، وأعلامها؛ سمة التعميم، وهذه حالة غير صحيحة في النقد، وتنقصها الحكمة والدقة في كثير من مواقفها، فليس كلُّ الناس سيئين، ولا كلُّهم محسنون، لكنّ أبا الصلت بنى موقفه النقدي من خواص مصر، وعوامها على أساس من رآه منهم، وتعامل معه، أو اتصل به وحاوره، فلم يجد فيهم ما نطمئن به نفسه من الخصال الحميدة، فقال موظفاً الشعور:

[البسيط]

يسلى من الهم أو يعدى على النوب	وكم تمنيت أن ألقى بها أحداً
كانت مواعيدهم كالآل في الكذب	فما وجدت سوى قوم إذا صدقوا
أحظى به فإذا دائي من السبب	وكان لي سبب قد كنت أحسبني
ولا كتائب أعدائي سوى كتب	فما مقلّم أظفاري سوى قلبي
(الداني، 1991، الصفحات 16-17)	

فتيقنّ سريعاً من ضياع طلبته في مصر، وأيقن بعد الحبس بهوانه، ومذلتة فيها، فقال: " ولم تطل مدة اللبث حتى تبينت بما شاهدته أني فيها مبخوس البضاعة، موكوس الصناعة، مخصوص بالإهانة والإضاعة؛ وأن عيشها الرغد، مقصور على الوغد، وعقابها المر، موقوف على الحر، فلو تقدمت فعلمت ذلك لخف عنها مركبي وصرفت إلى سواها وجه مطلبي، ولكن لي في الأرض مرمي شاسع، ومنتاب واسع، بل تثبطت، حتى تورطت، حتى عوملت بما يعامل به ذوو الجرائر والذنوب، وجرعت من المذلة بأوفي ذنوب. هذا مع ما حبرته من المدح التي اشتهرت شهرة الصباح، وهبت هبوب الرياح، ولهج بها الحادي والملاح " (الداني، 1991، صفحة 19)، وأخذ يلوم نفسه ويعنفها على بقائه في مصر مع إدراكه المبكر عاقبة أمره بما قاساه، ولاقاه، فهذه البلاد - بحسب رأيه - اندرس فيها كل علم، " ولم يبق إلا رعاع وغيثاء وجهلة دهماء، وعامة عمياء " (الداني، 1991، صفحة 36)، وهكذا كان أسلافهم القدامى - بحسب أبي الصلت - نقلاً عن الوصيفي في كتاب له في أخبار مصر: " يعتقدون أن هذا العالم، الذي هو عالم الكون والفساد أقام برهة من الدهر خالياً من نوع الإنسان، وأن تلك الأنواع مختلفة على خِلقٍ فادّة، وهيئات شاذة، ثم حدث نوع الإنسان فنانح تلك الأنواع فغلبها واستولى عليها، وأفنى أكثرها قتلاً، وشرّد ما بقي منها إلى القفار، وأن تلك المشردة هي الغيلان والسعالي وغير ذلك، مما حكاه من اعتقاداتهم المستحيلة، وتصوراتهم الفاسدة، وتوهّماتهم النافرة... " (الداني، 1991، صفحة 30)، لكنّه أقرّ في الوقت نفسه بناءً على الشواهد العينية التي رآها في مصر بنبوغ طائفة منهم من ذوي المعارف، والعلوم، وبخاصة فيما خلفوه من آثار بادية في الأهرامات، تلك البديعة المعجزة التي حيّرت الأذهان (الداني، 1991، صفحة 30)، إلى جانب التصنيف في العلوم البحتة كالكيمياء مثلاً (الداني، 1991، صفحة 36)، والنظر في علم النجوم، فالمصريون بحسب قوله: " أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم وتصديقاً لها وتعويلاً عليها، وشغفاً بها وسكوناً إليها، حتى إنه قد بلغ من زيادة أمرهم في ذلك إلى أن لا يتحرك واحدٌ منهم حركةً من الحركات الجزئية التي لا تُحصر فنونها ولا تحصل أجزاؤها وأنحائها، ولا تضبط جهاتها، ولا تقيد غاياتها، ولا تعد ضروبها إلا في طوالع يختارونها، ونصب يعتمدونها... " (الداني، 1991، صفحة 45).

ومن سيرة أبي الصلت عرفنا أنه اشتغل بعلم الطب، والتصنيف فيه، وأراد أن يشتهر به في أثناء إقامته بمصر، لكنّ ظنّه خاب في ذلك المسعى، فلم يصادف من أهل هذه المهنة ما يسرّ قلبه، وينعم بمجاورته والإفادة منه، فقال: " كنت في أول جلوسي بها شديد العناية بكتب جالينوس وبقراط، باحثاً عن مشكلها، فاحصاً عن مستغلقتها، فحرصت كل الحرص، وجهدت كل الجهد على أن أجد من أهل هذه الصناعة من أستفيد منه وأستزيد بمذاكرته وأفدح خاطري بمفاوضته، فلم أجد غير قوم طبع الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم، وطمس أفهامهم، وحال بين الحكمة وبينهم، فكانوا وإياي، كما قال الشاعر: [م. الكامل]

قوم	إذا	جالستهم	صدئت	بقربهم	العقول
لا	يفهموني	قولهم	ويدق	عنهم	أقول
فهم	كثير	بي	كما	أني بجمعهم قليلاً	
				(الداني، 1991،	صفحة 37)

إنّه يستعين بنص شعر لدعبل الخزاعي في توجيه النقد لأعلام مصر بعامة، ولأطبائها بخاصة، وذلك لجهلهم وغباؤهم - بحسب نصه - وعدم استيعابهم لمتطلبات العلوم، ومساراتها، ثمّ آثروا على التعليم الصحيح " جهلهم بصناعة

الكتب وخلوهم من أدواتها، وعدمهم لعددها وآلاتها، وإهمالهم لشرائطها، وإغفالهم للوازمها، وقصور أذهانهم عن إدراك دقائقها، وبعد عقولهم عن تصور حقائقها، ولم يعلموا أن الطبيب محتاج إلى أشياء تعينه في صناعته، وتفتح له مغالقتها، وتوضح مشكلها، وتشرح مشتبهها، وتبين له مستعجمها، وتذيقه برد اليقين، وتجلو عن عين بصيرته ظلم الشكوك والظنون... " (الداني، 1991، صفحة 38)؛ إذ نقل عن أحد الشعراء قوله: [المجتث]

لأبي الخَيْرِ في العِلا جَ يَدُّ ما تقصُر
كُلُّ مَنْ يَسْتَطِبُّه بَعْدَ يَوْمين يُقْبَرُ
(الداني، 1991، صفحة 41)

وهذان البيتان مما أنشدهما أبو الصلت لطبيب اسمه جرجس؛ من أهل أنطاكية، في طبيب يسمّى أبو الخير سلامة بن رحمون اليهودي الذي كان " يزور فصولا طبية وفلسفية يبرزها في معارض ألفاظ القوم، وهي محال لا معنى لها، وفارغة لا فائدة فيها، ثم ينفذها إلى من يسأله عن معانيها، ويستوضحه أغراضها، فيتكلم عليها ويشرحها بزعمه دون تيقظ ولا تحفظ، بل باسترسال واستعجال، وقلة اكتراث وسوء اهتبال، فيؤخذ منه ما يضحك منه ويشرح الصدر... " (الداني، 1991، صفحة 43) ونلاحظ فيها الهجاء الساخر، والنقد اللاذع، لمن يدعي العلم وهو ليس بأهله. وبمثل ما تقدّم عمد أبو الصلت إلى الاستشهاد بنتفة شعريّة لأبي الحسن السلامي في هجاء أحد أطباء مصر، قائلاً:

[الخفيف]

وطبيب مجرب ما له بال نجح في كل ما يجرب عادة
مر يوماً على عليل فقلنا قر عيناً فقد رزقت الشهادة
(الداني، 1991، صفحة 39)

ولا تخلو الرسالة المصريّة في حديث مؤلفها عن ميدان الطب في مصر من نقد مادح، وإطراء ظاهر لأحد المتطبيين المصريين، وقد اتخذ من العلاج النفسي وسيلة لشفاء مرضاه، فقال: " ومن ظريف ما سمعته أنه كان بمصر منذ عهد قريب رجل ملازم للمارستان يستدعي للمرضى كما تستدعي الأطباء، فيدخل على المريض فيحكي له حكايات مضحكة، وخرافات مسلية، ويخرج له وجوهاً مضحكة، وكان مع ذلك لطيفاً في إضحائه وبه خبيراً، وعليه قديراً؛ فإذا انشرح صدر المريض عادته إلى أن يبرأ، أو أن يكون منه ما شاء الله... " (الداني، 1991، صفحة 40)، ثم يعلق على هذا بقوله: " فليت أطباء عصرنا هذا بأسهم قدروا على مثل هذا العلاج الذي لا مضرة فيه ولا غائلة له، بل أمره على العليل هين، ونفعه ظاهر بين؛ كيف لا وهو ينشط النفس ويبسط الحرارة الغريزية، ويقوي القوى الطبيعية، ويقوي البدن على دفع الأخلاط الرديّة المؤذية " (الداني، 1991، صفحة 40).

والنقد الأبرز في حقل العلوم، والمعروض بصورة النثر التقريظي، ما خصّ به أبو الصلت الطبيب، الفيلسوف، القاضي أبا الحسن عليّ بن النضر، الذي ترجم له بقوله: " ذو الأدب الجم والعلم الواسع، والفضل البار. وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى، والرتبة الأولى. وقد كان ورد الفسطاط يلتبس من وزيرها الملقب الأفضل تصرفاً وخدمة فخاب فيه أمله، وضاع رجاؤه، وأخفق سعيه... " (الداني، 1991، صفحة 46).

لقد جمع أبو الصلت الداني في هذا النص النقد المظهر لمحاسن ملكات ابن النضر العلمية، ومدح أدبه، وعلمه، وفضله، وذكر شيئاً من حياته يماثل ما مرّ به الداني نفسه من سعي نحو الشهرة وخيبة أمل كان يرحوها من الملك الأفضل، وهذا المشترك بينهما ربما كان سبباً من أسباب مدح هذا الطبيب في النص المذكور. ومن نتائج آرائه المتقدمة في ميدان الطب ورجالاته أنّ الطبيب يحتاج إلى معرفة العلوم الطبيعية، والرياضية، والفلكية، والموسيقية، والنفسية، ليربط العلل بمسبباتها، ولتجنب من الوقوع في الزلل والرأي السقيم (الداني، 1991، صفحة 38).

أما الوجهة الأظهر، والأكثر أهمية في نقد أبي الصلت في رسالته فكانت في النقد الأدبي، وعلى وجه أخص في نقد الشعراء ونصوصهم الشعرية، فمن ذلك أنّ أبا الصلت قد انتقد الملك الأفضل، ولامه على تقريبه أحد الشعراء غير المعروفين بالشهر، والجودة، بل بالتكلف والتعسف، فتمثّل أبو الصلت ببيت شعر قاله بدهة ذلك الشاعر المغمور، المحتفى به (أبو الحسن علي بن جعفر بن النون) حين طلب منه وصف أترجة مصبّعة، فجاء وصفه منفراً للوزير عنها، إذ لم يحسن مزاجية الألفاظ بما يناسب المقام، فاستدلّ الداني على إخفاق الشاعر المذكور بإقامة موازنة مشابهة لسابقتها في وصف الأترجة مع أبي الحسن علي بن رشيق القيرواني، الذي أنشد بيتين من الشعر فيها، واضعاً ألفاظه موضع الوصف للأترجة، والمدح للأمير المعز بن باديس في آن واحد، فأحسن فيهما، فقال أبو الصلت: " ولم يقبل الأفضل على أحد من الشعراء كإقباله إلى رجل من أهل معرة النعمان يدعى أبا الحسن علي بن جعفر بن النون فإنه أفاض عليه سحائب إحسانه، وأدر له حلوبة إنعامه، ولقبه بأمين الملك، وأدناه واستخلصه، ولم يكن شعره هناك بل كان متكلفاً متعسفاً، ولست أعرف أحداً من أهل تلك البلاد يروي له بيتاً واحداً فما فوقه، لمنافرة الطباع كلامه، ونبو الأسماع عن طريقته، وقد كان أمره الأفضل يوماً أن يصف مجلساً عبّيت فيه فواكه ورياحين، فقال من مزوجته يصف الأترج المصبّع: [الرجز]

كأنما أترجّه المصبّع أيدي جناة من زنود تقطع

فغلط ولم يفظن، وأساء أدبه ولم يشعر؛ لأنه قصد مدح الأترج، فقرّز نفس الملك منه وصرّفها عنه،... والبلوغ الحاذق من إذا وصف شيئاً أعطاه حقه، ووفاه شرطه، ووصفه بما ناسبه في حالتي مدحه وذمه، ووضع كل شيء في مكانه في نثره ونظمه، فأين هذا الشاعر في أدبه وحذقه بالصناعة وفطنته، من أبي علي الحسن ابن رشيق، وقد أمره المعز بن باديس أن يصف أترجة مصبّعة كانت بين يديه، فقال مرتجلاً على البديهة:

أترجة سبطة الأطراف ناعمة نلقي العيون بحسن غير مبخوس
كأنها بسطت كفا لخالقها تدعو بطول بقاء لابن باديس "

(الداني، 1991، صفحة 52)

ويبدو أن الموازنة المتقدمة قد شجّعت أبا الصلت الداني على الاستطراد في عرض نصوص شعرية لشعراء عرفوا بدقّة الوصف، وملاءمة التعبير لمقتضى الحال والمقام، من قبيل عرض ذم الورد لابن الرومي (ت283هـ) (الداني، 1991، صفحة 51)، ووصف القمر لعبد الله بن المعتز (ت296هـ) (الداني، 1991، صفحة 15).

والشخصية الأدبية الأبرز التي وقف عندها أبو الصلت مطولاً ممتدحاً مرّة، وناقداً منتقداً مرّة أخرى هي شخصية الشاعر ابن مكنسة الإسكندراني (ت 510 هـ)، ففي الثناء على شعره قال أبو الصلت: " ومن شعرائها المشهورين أبو الطاهر

بن إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكنسة، وهو شاعر كثير التصرف، قليل التكلف، مفتن في وشي جد القريض وهزله، وضارب بسهم في رقيقه وجزله... " (الداني، 1991، صفحة 19). ومن هذه الترجمة النقدية يرى أبو الصلت أن ابن مكنسة تناول أغراضاً وموضوعات متعددة دون أن يتكلف أو يتعسف فيها، حتى مع وشي النصوص وتحسينها، ويؤيد ذلك بأبيات لابن مكنسة: [الطويل]

أعاذلُ ما هبت رياحُ ملامةٍ بنار هوىٍ إلا وزادت تضرما
فكِلني إلى عينٍ إذا جفَّ ماؤها رأتُ من حقوقِ الحُبِّ أنْ تُدرِفَ الدما
فكم عبرةٍ أعطتْ غرامي زمامها عشيَّةً أعمَلنَ المطيَّ المرَمَما
وعينٍ حماها أنْ يُلِمَّ بها الكرى أحاديثُ أيامِ تقصِّينَ بالحمى
فله قلبٌ قارَعتهُ هُمومُهُ فلم يَبقَ حدُّ منه إلا تثلما
(الداني، 1991، صفحة 52)

وأعجب أيضاً بأبيات له، نسجها ابن مكنسة على منوال طريقة أبي الشمقمق (ت200هـ) في النظم، باستعمال الألفاظ السهلة، والمعاني الاجتماعية المتداولة، والغرض الهجائي الصارخ، فقال ابن مكنسة: [م. الرجز]

أنا الذي حدَّكُم عنه أبو الشَّمَقَمَقِ
وقال عني إنني كنتُ نديم المُتَقِي
وكُنْتُ كُنْتُ كُنْتُ كُنْتُ من رُماةِ البُنْدُقِ
حتى متى أبقى كذا تيساً طويلَ العُنُقِ
بِلحِيَّةٍ مُسبَلَةٍ وشارِبٍ مُحَلَّقِ
يا ليتها قد حُلِقَتْ من وجه شيخِ حَلَقِي
(الداني، 1991، صفحة 52)

وقد نستنتج أن ميل أبي الصلت لابن مكنسة، وصنعتة في الشعر، شبيه بميله إلى أبي الحسن علي بن النضر، وصنعتة في العلوم والطب؛ لأنَّ ابن مكنسة مع شاعريته الجيدة لم يصب حظاً وافراً عند الملك الأفضل (الداني، 1991، صفحة 50) تماماً كما حصل مع الداني نفسه، وأبي النضر...

وبإزاء هذا النقد الإطرائي لشعر ابن مكنسة في الرسالة المصرية، كان لأبي الصلت مواقف يعرِّض فيها بشخص ابن مكنسة، ويهاجم فيها بعض شعر الرجل، فقد ذكر أبو الصلت سلوكاً شاذاً لابن مكنسة في أيام شبابه، قائلاً في ترجمته: " وكان في ريعان شبابه، وعنفوان حدائته يعشق غلاماً من أبناء عسكريّة المصريين... " (الداني، 1991، صفحة 49)، ثم ذكر في مواضع تالية من (الرسالة المصرية) نصوصاً من شعر ابن مكنسة أثار فيها على نصوص من شعر غيره، كقوله من قصيدة مثلاً: [السريع]

أراح وفعل الراح فيه كما يفعل بالغصن نسيماً الرياح
(الداني، 1991، صفحة 53)

أغارَ فيه على بيت خالد الكاتب (ت 262 هـ): [الطويل]
وراحَ وفعل الراحِ في حركاته كفعل نسيم الريح في الغصنِ الغضِّ
(الداني، 1991، صفحة 53)

وقوله أيضاً: [السريع]

حاجبه قوسٌ وأجفانه نبلٌ وعطفاه ثني الرماحِ
(الداني، 1991، صفحة 53)

أغار فيه على بيتين من شعر أحد شعراء عصره: [السريع]

سهمٌ من اللحظِ رمتني به من كثرِ قوسٍ على حاجبِ
كانَ مقلتيه في الحشا سيفُ عليّ بنِ أبي طالبِ
(الداني، 1991، صفحة 53)

والإغارة من السرقة، وهي تتمثل بسطو الشاعر على شعر غيره مع قيامه بتغيير لفظي أو معنوي جزئي في أصل النص المأخوذ كي ينسب إليه فيما بعد مع أن أصل النص لشاعر سابق لمن يفتن لهذه الإغارة. وعلق أبو الصلت الداني على أبيات أبي الطاهر ابن مكنسة سرق معناها من نتفة شعرية لأبي حامد الغزالي (ت 505 هـ)، فقال: " وقال أبو الطاهر:

قلت إذا عقرب الدلالُ على خده الشعر
هذه آيةٌ بها ظهر الحسنُ وانتشر
ما رأيَ قبل صدغه عقربٌ حلت القمر

هذا معنى مليح ولكنه سرقة من بيتين أنشدنيهما بمصر رجل يسمى أبا محمد التكريتي، من تلاميذ أبي حامد الغزالي، لأبي حامد، ولم أسمعها من غيره:

حلت عقارب صدغه في خده قمراً فجلاً به عن التشبيه
ولقد عهدناه يحلُّ ببرجها فمن العجائب كيف حلت فيه "
(الداني، 1991، الصفحات 55-56)

ويرى الباحثان أن السرقة الأدبية الواضحة، والدقيقة (شعرية كانت أم نثرية)، تصدق إن اجتمع شرطان معاً في النص السارق، وهما: أخذ النص السابق المسروق بلفظه ومعناه من دون إجراء أي تغيير عليه، والآخر إغفال نسبة المسروق عنه وعدم الإشارة إلى صاحبه على سبيل التضمين مثلاً، وبخلاف هذين الشرطين يمكن أن يدخل هذا العمل في باب التناص، فالجودة تكمن في توليد المعاني وتولييفها بزيادة مؤثرة في المعنى، وفيها يتفاضل السابقون واللاحقون، والمتقدمون والمتأخرون في الإفادة والإجادة، وفي البلاغة والإبلاغ، وفي الصورة والمضمون، وغير ذلك.

ولما كان اختيار المرء قطعة من عقله؛ فإنَّ اختيار أبي الصلت الداني لنصوص بعينها ضمن رسالته المصرية في الهجاء الساخر، وفي وصف الخمرة، والغزل بالمذكر يعطي للمتلقى خلاصة نقدية انطباقية لما استحسنته الداني، وأراد به تشويق القارئ واغرائه بمتابعة قراءة الرسالة لما فيها من ألفاظ ميسورة، ومعانٍ طريفة، وأريحية تنبسط لها النفس، من قبيل قول أبي مشرف الدرجاوي المصري يهجو قاضياً: [البسيط]

قاضي إذا انفصل الخصمان ردهما إلى الخصام بحكم غير منفصل
بيدي الزهادة في الدنيا رزخرها جهراً ويقبل سراً بكرة الجمل
(الداني، 1991، صفحة 58)

وقول آخر في هجاء رجل اسمه الرشيد: [م. الكامل]

شتان ما بين الرشيد يد وبين هارون الرشيد
هذا يعزّز بالجلو دِ وذا يعزّز بالجنود
(الداني، 1991، صفحة 59)

ولم تنج بعض الأماكن من ألسنة الشعراء الحداد في ذلك العصر بمصر، فقد ذمّ أحدهم حمّاماً، قائلاً بسخرية: [الخفيف]

إنّ حمّامنا الذي نحن فيه هو في حاجة إلى حمّام
قد دخلنا ونحن أولاد حام وخرجنا ونحن أولاد حام
(الداني، 1991، صفحة 60)

وأورد أبو الصلت بيتاً لشاعر مصري اسمه (محمود بن إسماعيل الدميّاطي)، وقد لعبت حرارة الخمر في رأسه، حتّى توهم أن نار تلك الحرارة سجدت له، فقال: [البسيط]

وبتُّ ليلي أرى النار التي سجدت لها المجوس من الإبريق تسجد لي

إنّ وصف الشاعر لحالته وقد أصيب بالثمالة في بيت شعر نسيجه سخرية مبطنة ولدها الوهم في ذهن الشاعر إنّما هو مدعاة للحزن والتأمل لما يصيب عقل المرء جرّاء شربه الخمرة، فكان الوصف سخرية سوداء، وكأنّ أبا الصلت الداني قد وصف الداء وأوماً إلى الدواء في بيت شعري نقدي.

ونجد في ذلك الزمان، فضلاً عن وصف الخمرة، وآلاتها، وحالاتها، الغزل بالمذكر؛ إذ كان أمراً مألوفاً لدى الخواص، والعوام، والأدباء، وإن كانت تأباه الطبيعة الإنسانية، ويبدو أنّ اختلاط الأعراق المختلفة في البيئة الإسلامية إبان تلك الحقبة قد أثر بشكل كبير في أخلاق الناس، وطبائعهم، من ذلك ما أورده الداني مبيناً وجهاً نقدياً معلوماً في نص شاعر تغزّل بمعشوق له اسمه (تمتام)، فقال: [السريع]

تمتمّة تمّ غرامي بها وعارض وعارض عرّضني للسقام
ووفرة همي بها وافّر وحاجبٌ وحاجبٌ أحجب عيّ المنام
(الداني، 1991، صفحة 62)

وخلاصة الطابع الفني لنقد أبي الصلت الداني في الرسالة المصرية وضوح أفكاره، وانسيابية أسلوبه، واختياره الألفاظ البعيدة عن التعقيد والتكلف، واستعماله المحسنات البديعية كالجناس والطباق والسجع عفو الخاطر، وعلى السجّية دون تقصّد منه لها، وإنشاء الصور الفنيّة في التعبير كلما اقتضى المقام الأدبي ذلك، واستدعاء الشواهد الأدبية ولاسيما الشعرية منها في تأكيد كلامه، وتقوية آرائه، أو في إقامة الموازنات مع الأعيان، والأدباء الآخرين؛ لإثبات الحجّة له على الآخر، وركونه إلى فن تراجم الأعلام ميداناً لعرّضه النقدي في الأدباء، ونصوصهم وما صدر عنهم، ومنتجهاً في بعض الأحيان إلى تطاير ذلك العرض بنسيج الحكايات الفني، أو بتجميل الكلام بنكهة السخرية، فضلاً عن الطرائف والظرائف...

الخاتمة...

وبعد هذه الرحلة الممتعة في الرسالة المصرية لأبي الصلت الداني نصل إلى خاتمة المطاف لنسجل تلك القيمة التي أبرزتها المضامين الأدبية والفنية التي أوردتها الرسالة، وهي تعكس شخصية صاحبها وتأثره بالظروف التي أحاطت به في أثناء إقامته في مصر إبان حكم الفاطميين لها، وهي على ما يبدو نتاج ذلك التأثير السلبي الذي انعكس صدها على مساحة الرسالة كلها لما لقيه فيها من جفاء وتهميش جعله ناقماً على حكامها، ومبرزاً الجانب السلبي الذي تقرّب به إلى حاكم تونس أبي الطاهر يحيى بن باديس؛ الذي كان على خلاف كبير مع الدولة الفاطمية وحكامها، ومن ثمّ فإنّ المظهر الطبيعي الذي يتقرّب به أبو الصلت لابن باديس هو بإبراز الجانب السلبي لأعدائه ومناوئيه...

ومن هنا فقد كانت الرسالة المصريّة وثيقة مهمة تعكس نظرة صاحبها إلى تلك البلاد، وما أصابه فيها من غبن وحييف، وما لقيه فيها من الأدباء والعلماء الذين تعرّض لهم بالنقد والتجريح تارة، وبالرضا والقبول تارة أخرى، وبين هذا وذاك يعرض لمادة أدبيّة مهمة تعكس ذوق صاحبها وشخصيته الأدبية، وقيمة تلك النصوص التي شكّلت رافداً مهماً من روافد الأدب العربي في العصر الفاطمي..

عملنا هذا لله فإن وفقنا فبفضله جل وعلا وإن قصّرنا فحسبنا أننا اجتهدنا، وما توفيقنا إلا بالله عليه توكلنا وإليه

ننيب.

المصادر والمراجع:

- ابن ابي اصيبعة. (د.ت). *عيون الانباء في طبقات الاطباء*. (تحقيق نزار رضا، المحرر) بيروت: مكتبة الحياة.
- ابن الأبار البلنسي. (1986). *تحفة القادم* (المجلد 1). (تحقيق د. إحسان عباس، المحرر) بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- ابن بشكوال. (1955). *الصلة في تأريخ أئمة أهل الأندلس* (المجلد 2). (تحقيق عزت العطار، المحرر) القاهرة، مصر: مكتبة الخانجي.
- أبو عبد الله الحميري. (1980). *الروض المعطار في خبر الأقطار* (المجلد ط2). (تحقيق د. إحسان عباس، المحرر) بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة.
- العماد الأصفهاني. (1986). *خريدة القصر وجريدة العصر*. (تحقيق اذرتاش اذرتوش، نقحه محمد المرزوقي، محمد العروسي، المحرر) تونس، تونس: الدار التونسية للنشر.
- المقري التلمساني. (1997). *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب* (المجلد 1). (تحقيق د. إحسان عباس، المحرر) بيروت: دار صادر.
- أمية بن أبي الصلت الداني. (1991). *الرسالة المصرية (ضمن كتاب نواذر المخطوطات)* (المجلد 1). (تحقيق عبد السلام هارون، المحرر) بيروت، لبنان: دار الجيل.
- ياقوت الحموي. (1993). *معجم الأدباء*. (تحقيق د. إحسان عباس، المحرر) بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- ياقوت الحموي. (1995). *معجم البلدان*. بيروت، لبنان: دار صادر.